

دورية ثقافية تصدر عن جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت

عدد خاص



دراسات في العلوم الإسلامية

مجلّة محكّمة

تصدرها كلية الدراسات الإسلامية

شتاء وربيع ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م





جامعة المقاصد في بيروت

الآخر في القرآن الكريم
قواعد ناظمة وتوجيهات أخلاقية وسلوكية

أ. د. علي فريد دحروج

اقتضت سُنّة الله تعالى في الخلق أن يكون الناس مختلفين في اللون واللغة، متفاوتين في الفهم والإدراك والتوجّهات. لكن، ومع هذا الاختلاف والتفاوت هناك إستعداد فطري دائم يدفع كل طرف للالتقاء بالطرف الآخر والتعايش معه، التقاءً يؤكد حتمية العيش المشترك وروح الاجتماع البشري، وصولاً لبناء حضارة إنسانية جامعة، الكل فيها يعمل ولا يهدم، تلبية للحاجات وحماية للوجود والمصير، إذ لا يمكن الادعاء بإمكانية الاستقلال المطلق في هذه الحياة، سيما وأننا بفعل ثورة الاتصالات والتكنولوجيا وتقريب المسافات، أصبح العالم كله أشبه بقرية صغيرة، تذوب فيها الموانع وتنمحي الخصوصيات. فالكل منكشف أمام الآخر - المرآة - يرى فيه جانباً من شخصيته ووجوده ومعرفته وتأملاته، مما يحتم عليه البحث عن نقاط خلّاقة، تجمع ولا تفرّق، تدني ولا تباعد.

ولعل في النظرة القرآنية لهذا المعنى ما يؤكد على وجوب السعي وديمومة البحث عن هذا التلاقي، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

إن وحدة الأصل البشري ووجوب صيانة النفس الإنسانية، وحرمة إهدار الكرامة الآدمية، كان من أهم أهداف القرآن الكريم الكبرى، سعياً لتحقيق التبادل والتقاء المصالح والمنافع، ومعرفة

الآخر وفهمه، وصولاً إلى غاية نبيلة هي رفع الأذى وتحقيق المودة وإشاعة الأمن والسلام وإقامة صرح العدل في الأرض.

وبهذه الأهداف، حقق القرآن الكريم ـ فكراً وسلوكاً، عقيدة ومنهجاً ـ أنبل غاية وأروع وسيلة في إقامة توازن حضاري فاعل بين أبناء البشر، وذلك من خلال فلسفة الاعتراف بالآخر، والقائمة على فهمه واستيعابه والحوار معه ودعوته بالتي هي أحسن، وتمكينه من ممارسة حياته وتحصين وجوده، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ [الحج: ٣٨]. وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥].

إن «الآخر» في القرآن الكريم يحتل مساحة كبيرة في سوره وآياته، وذلك بسبب تعدّد هذا الآخر وكيفية التعامل معه، علماً أن جميع البشر متساوون أمام الله، خلقاً وكرامة، وإن اختلفت ألوانهم ولغاتهم وأجناسهم، وتباينت مشاربهم وتوجهاتهم؛ لأن ذلك مظهر من مظاهر تجليات قدرة الله تعالى في الوجود والخلق، فكانت وحدة الأصل في النشأة والتكوين، ثم في الهداية والتشريع، والحكم على الناس هو حكم على سلوك الفرد المخطئ، وليس على الدين أو المذهب أو الملة، إذ الأصل واحد، ومن مشكاة واحدة تنحدر كل الشرائع. فالآخر في القرآن الكريم هو الآخر المختلف، وليس الضد أو النقيض، والفرق بين التصوّرين كبير. فالتعامل مع الآخر المختلف لا ينفي عنه صفاته الإنسانية أو يفترض فيه النقائص، بل يحدّد وبدقّة الوجه الذي عليه خلاف وفيه اختلاف. أما التعامل مع الآخر الضد أو النقيض فيستلزم تجريد هذا الآخر من كل الصفات الحميدة، بل وتجريده أحياناً من إنسانيته، حتى يبدو وكأنه مخلوق غريب قادم من كوكب آخر، يسعى للتدمير وبثّ الكراهية، والاختلاف بين كل ذلك متروك لله تعالى يحكم فيه ما يشاء يوم القيامة، كما ذكر القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ [الحج: ١٧].

حول هذه العناوين الكبرى جاء هذا البحث ليناقش مسألة مهمة وخطيرة، رغم ما كتب عنها، ودارت نقاشات وحدثت مؤتمرات وندوات، وألفت مجلدات. ورغم ذلك تبقى هذه المسألة حاضرة وبشكل دائم، في حياتنا المعاصرة، مع اشتداد الأزمات وتكاثر الفتن وتخبط المفاهيم والرؤى والتصورات، وبروز يافطات الجهل والتعصّب والقراءات الخاطئة لحقيقة ما دعا إليه الإسلام وجاء به القرآن الكريم. وهذا المشهد يتكرر يومياً، ليس من طرف واحد تجاه طرف آخر بعينه، بل جميع الأطراف مشاركون في إنتاج هذه المسرحية الملهاة.

إن هذا البحث يتمحور حول حقائق خمس، وهي ليست على سبيل الحصر، وإنما لأهميتها وكونها تشكل الجامع الأعم المشترك لبيان حقيقة الآخر ومفهومه وكيفية التعامل معه من وجهة نظر القرآن الكريم، وهذه الحقائق هي: الوحدة والتنوّع، التعارف والتفاهم، قبول الآخر والتعددية الثقافية والحضارية، العدل والسلام والحوار وأدب الخلاف.

خصوصية النظرة الإسلامية للآخر:

الحديث عن الآخر يستدعي بالضرورة معرفة هذا الآخر وتحديده، ولا يمكن الحديث عن الآخر إلّا إذا كان هناك آخر مغاير له، يقابله ويختلف عنه، وإلّا لم يكن هناك آخر البتة. وهذا بدوره يستدعي البحث عن هذين المتغايرين المختلفين المتقابلين.

وفي القرآن الكريم يتحدد الآخران بلفظين متوازيين هما: المسلم وغير المسلم. وبالتالي تتوجه آيات القرآن الكريم للكشف عن هوية هذين الآخرين من منطلقات عدة، كلّ بحسب ما يحقق وجوده ويعطيه صفة المغايرة.

ولبيان خصوصية النظرة الإسلامية المستمدة من آيات القرآن الكريم وتعاليمه، كان لا بدّ من تسليط الضوء على حقيقة ومفهوم هذين الآخرين المتغايرين، وبصيغة السؤال: من هو المسلم؟ ومن هو الآخر؟.

١ ـ من هو المسلم؟

سؤال قد يظن البعض أنه يسير الإجابة سهل الفهم، لكن الناظر في القرآن الكريم يجد أنّ لفظ المسلم بصيغه المتعددة، الإسمية والفعلية، يشير إلى أن المسلم هو من آمن بالله رباً واعتقد باليوم الآخر وأسلم أمره لله تعالى وانقاد طواعية لأوامره ونواهيه، عبر الرسالات والشرائع التي تعاقبت على البشرية منذ آدم عليه السلام وحتى مبعث آخر الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ. وعلى ذلك كانت تعاليم ووصايا الرسل والأنبياء لشعوبهم وأقوامهم أن اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وكونوا من المسلمين.

وإلى هذا المعنى أشارت الآيات القرآنية بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٢٨ ـ ١٣٢]. فالإسلام هو اللفظ الجامع الموحّد للشرائع السماوية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٩]. وفي وصية يعقوب يقول: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣]. ويقول: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦]. وجميع الأنبياء والمرسلين كانت دعوتهم هي الإسلام بمعناه العام الذي يحدد العلاقة بين الإنسان وربه ويرسم له معالم السلوك في هذه الحياة. وعلى هذا سار الأنبياء والمرسلون بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: ٥٢].

وما أجمل ما ذكره القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣]. فالعمل الصالح والدعوة بالحسنى مرتبطة بسلوك الإنسان ومدى التزامه بدينه الذي يدين به. فالإسلام بهذا المعنى مساحة مشتركة بين المؤمنين بالله الملتزمين حدود شرائعه أمراً ونهياً بعيداً عن الغلو والتطرّف والتأويلات الفاسدة.

لكن المسلم بالمعنى الخاص أصبح يطلق على من آمن بالنبي محمد ﷺ وبالقرآن كتاباً والتزم حدود ما شرع الله فيه من العبادات والمعاملات والأخلاق والوصايا، حتى أصبح تعريف الإسلام بهذا المعنى قائماً على ما ورد في آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ من الإقرار بالتوحيد لله رباً وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والإيمان باليوم الآخر وكل ما علم من الدين بالضرورة. هذه المسلمات الإيمانية في شريعة الإسلام هي أيضاً امتداد وتذكير لما ورد على لسان المرسلين والأنبياء من قبل.

«فالإسلام يتحدد بالعمل الظاهر في نطاق الجماعة، أي إعلان التوجّه والانخراط الاجتماعي في المجموع، بينما يظل الإيمان أمراً مستتراً لكن للمسلمين الظاهر والله يتولى السرائر..»[(١)].

والمقصود من لفظ المسلم في هذا البحث هو المسلم بالمعنى الخاص لوجود المختلف معه المغاير له في الدين، حتى يصح الحديث عن مسلم وعن آخر.

٢ ـ من هو الآخر؟

سؤال شغل بال الكثيرين من علماء الاجتماع والتربية والدين، ذلك أن تحديد الآخر يتحدد بوجه الاختلاف الذي يفرق بين الأنا وهذا الآخر. فالبعض يحدده على أساس العرق أو الجنس، والبعض يحدده على أساس اللغة والعقيدة والثقافة.

---

(١) رضوان السيد، الجماعة والمجتمع والدولة، سلطة الأيدولوجية في المجال السياسي والإسلامي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص٢٣٥.

ولعل أبسط تعريف للآخر هو: «أن الآخر إما أن يكون فرداً مختلفاً أو مجتمعاً مختلفاً أو ثقافة مغايرة»[١].

وعندما نتحدث عن الآخر بالنسبة للمسلم فنحن نحدد هذا الآخر بأنه المختلف عن المسلمين عقدياً، أياً كانت عقيدته، سماوية أم وضعية، ولا سيما تلك التي ذكرت في القرآن.

إن أول ما نلاحظه عن خصوصية النظرة الإسلامية للآخر هو أن الإسلام ومن خلال القرآن الكريم لم يرتبط بجنس بشري كما هو الحال في بعض الديانات كالهندوسية مثلاً، كما لم ينحصر في جغرافيا محددة ويغلق على نفسه الجدران كما هو في اليهودية مثلاً، بل إن الإسلام تجاوز هذه النظرة الضيقة العنصرية؛ لأنه موجه لكل البشر، مهما كانت أجناسهم أو لغاتهم أو ألوانهم أو جغرافيتهم المكانية، مصداقاً لقول الحق تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ: ٢٨]. فالآخر معني بالدعوة ومقصود بالهدف، وهنا تبرز دقة هذه الخصوصية التي أرسى القرآن الكريم قواعدها لتكون قواعد ناظمة توجه العمل وتضبط الحركة، باعتبار أن الإسلام هو الدين الخاتم والمكمل لكل ما سبقه من شرائع سماوية، فهو يعامل الإنسان باعتباره مسلماً أو مسلماً محتملاً، لذلك لا يقطع الجسور والخيوط مع الآخر المختلف، بل يتركه يختار بنفسه الطريق الذي يريد السلوك فيه، طواعية دون رهبة أو خوف أو إكراه، يقول تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ويقول: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: ٩٩]، ويقول أيضاً: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢﴾ [الحجر: ٢].

(١) السيد ياسين، حوار الحضارات: الغرب الكوني والشرق المتفرد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٢٤. وقارن به: محمد نور الدين أفاية، الغرب المتخيَّل، صور الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب)، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ص٥١ ـ ٦٦.

وهذا الآخر الذي يتعامل معه الإسلام بطريقة خاصة جداً لا يقف على الطرف المقابل بشكل دائم، فما أسهل أن يصبح جزءاً من الأنا باعتناق الإسلام، وهذا الانتقال يعني التخلص تماماً من كل تراث الاختلاف أو حتى العداء؛ لأن الإسلام يجبّ ما قبله، فيسقط عنه كل التهم وكل ما كان يمكن أن ينال منه[١].

ثم إن منظومة القيم الأخلاقية التي أقرها الإسلام تسري على غير المسلم كما تسري على المسلم نفسه، والكل سواء أمام هذه القيم، إضافة إلى أن الحقوق التي أقرها الإسلام ليست مجرد حقوق عابرة، فليس من حق الفرد أو الجماعة أن يتنازل عنها أو عن بعضها، وإنما هي ضرورات إنسانية، فردية كانت أم جماعية، ولا سبيل لحياة الإنسان بدونها، حياة تستحق معنى الحياة، ومن ثم فإن الحفاظ عليها ليس مجرد حق للإنسان، بل هو واجب عليه أيضاً، يأثم هو ذاته ـ فرداً أو جماعة ـ إذا هو فرّط فيها، وذلك فضلاً عن الإثم الذي يلحق كل من يحول بين الإنسان وبين تحقيق هذه الضرورات[٢].

إن هذه الخصوصية للنظرة للآخر تحفظ له وجوده وكرامته وإنسانيته وحريته وحقه في التصرف والسلوك والعمل، ليكوّن مع الأنا صورة الإنسان المكرّم في القرآن، وصورة الإنسان المستخلف في الأرض، إعماراً لها واستثماراً لمواردها وحفاظاً عليها.

الحقيقة الأولى: الوحدة والتنوع:

يعيش الناس اليوم ـ كل الناس على تنوعهم وتمايزهم، ضمن حياة مشتركة، تتداخل فيها المصالح والمنافع، فلا يمكن لأي نوع من أنواع البشر أو فئاتهم أن يختاروا لأنفسهم زاوية من زوايا الدنيا، يقبعون فيها بعيداً عن أثر هذا التداخل دونما تأثر أو تأثير.

(١) أحمد الجهيني، محمد مصطفى، الإسلام والآخر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١٨ ـ ٢٢، وقارن به: محمد نور الدين أفاية، الغرب المتخيَّل، م.س. ص٦٧ ـ ٧٥.

(٢) محمد عمارة، الإسلام وحقوق الإنسان: ضرورات لا حقوق، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٨٩، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مايو/أيار، ١٩٨٥م، ص١٥.

فالتنوع سنة كونية، أودعها الله تعالى في جميع مخلوقاته، والإنسان واحد منها. وهذه السنة الإلهية لها صفة الثبات والديمومة، وهي تنسحب على جميع البشر بألوانهم ولغاتهم وقومياتهم ومعتقداتهم. وإذا كانت الإرادة الإلهية قد جعلت الناس أمماً وشعوباً ليتعارفوا، فقد اختار كل شعب أو قوم إنتماءه ومنهجه في هذه الحياة، وحدد لنفسه أسلوب المشاركة والسلوك الذي يسير عليه.

وإذا كانت مسألة التنوع مشيئة إلهية وفق النص القرآني: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]، فإنه من غير المقبول من أحد أن يعاند مشيئة الله ويدعو إلى تنميط الناس وفق ما هو عليه. كما لا يصح من أحد أن يدعو إلى وحدة أممية تلغي التنوع الذي شاءه الخالق سبحانه، ولو شاء الله تعالى لجعل الناس أمة واحدة ولالتغى التنوع: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود: ١١٨].

إن تنوع الشرائع المنزّلة على الرسل والأنبياء عليهم السلام هي إرادة الله ومشيئته في الخلق، وبسبب ذلك وما كتب عليه من طبائع الناس واجتماعهم البشري واختلاف جبلّاتهم، كان التنوع. ولكن تبقى العبرة في تجلي هذا التنوع في طرق الخير والصلاح والمنفعة العامة[1].

وقد يكون التنوع داخل النوع الواحد نفسه، فلا يمكن التمييز بين الأجزاء المتداخلة إذا ما اتحدت وشكلت أنموذجاً حياً متحركاً داخل الكون، مما ينتج عنه حالات فرز وانعزال حتى تصل إلى أضيق الدوائر، بحيث يتنافى ذلك مع طبيعة البشر والحياة. ومع التطور العلمي والتكنولوجي الهائل في حياة الإنسان، فإن البعيد قد دنا، والمسافات قد طويت، وزالت الحدود، وأصبحت الدنيا قرية واحدة، مما يفرض على الناس ـ كل الناس ـ أن يعيشوا

(١) أسعد السحمراني، الإسلام والآخر، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص١٠ ـ ١١.

مع بعضهم البعض، مهما تنوعت انتماءاتهم وتعددت هوياتهم، وذلك من أجل تحقيق المصالح المشتركة فيما بينهم[1]. وقد ورد في الأثر: «صلاح شأن الناس التعايش»[2].

ولكن، كيف يمكن أن يتحقق هذا التعايش وتزول ـ بالتالي ـ معه كل حالات الفرز بسبب التنوع المتعدد الأشكال: ثقافياً واجتماعياً ودينياً وسياسياً واقتصادياً وعرقياً وربما أيضاً أخلاقياً؟

لا شك هناك أساسان لا بد من تحقيقهما: ضمان الحقوق والمصالح لكل الناس، والاحترام المتبادل. فالإنسانية جوهر واحد مشترك عند الجميع، والواجب يفرض على الكل أن يحترموا إنسانيتهم باحترام بعضهم البعض، مهما اختلفت إتجاهاتهم الفكرية؛ لأنهم في الأصل متساوون، وفي وحدة النوع متلاقون.

ولذلك عندما نبحث في الآخر، لا بد أولاً من البحث في جوهر هذا الآخر، وفي هويته، وفيما يتقوَم به، وكما قال الإمام علي كرم الله وجهه: «الناس صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»[3].

ولذلك عندما مرّت جنازة ليهودي في المدينة المنورة من أمام النبي محمد ﷺ وقف لها، فقال له بعض الصحابة: إنها جنازة يهودي !!! فقال النبي ﷺ: أو ليست نفساً[4].

إن التنوع الذي أشارت إليه آيات القرآن الكريم ـ وهي كثيرة جداً ـ كان المنطلق الأساس لأول اجتماع في الإسلام، وهو صيغة ميثاقية في المدينة

(١) علي درحوج، لماذا الحوار، رؤية تحليلية لفلسفة الاعتراف بالآخر، بحث منشور بمجلة «دراسات في العلوم الإسلامية»، عدد ١، كلية الدراسات الإسلامية، جامعة المقاصد، بيروت، ربيع ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ص٨٩ ـ ١٠٩.
(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣م، ٧١/ ١٦٧.
(٣) الشريف الرضي، شرح نهج البلاغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م، ص٣٥.
(٤) انظر: تفصيل القصة في صحيح البخاري، حديث رقم ١٢٥٠، وصحيح مسلم، حديث رقم ٩٦١.

المنورة، تمت صياغتها فيما عرف باسم الصحيفة التي أقرها النبي ﷺ بين المسلمين وبين غيرهم من أتباع الرسالات السماوية والمكونات البشرية. وفي هذه الصحيفة تأسست القواعد الناظمة لحفظ التنوع البشري والوجود الإنساني على أساس قاعدة حق المواطنة للجميع[1].

فالتنوع الذي أرسى الإسلام قواعده ومفهومه لا يعنى التخلي عما يعتقده المؤمن، ولا يبيح التنازل عن القناعات الراسخة، ولا يجعل من الحلال حراماً، ولا من الحرام حلالاً.

كذلك لا ينبغي للاختلاف الديني بين الناس أن يؤدي إلى الصراع والنزاع، فالأصل في العلاقة بين البشر هو الانسجام والاحترام المتبادل، فإذا شعر طرف من الأطراف بانتهاك حقوقه، أو التعدي على مصالحه من قبل طرف آخر، فلن تتوفر حينئذ أجواء التعايش. وما يحصل ـ غالباً ـ من تنازع وصراع بين الجهات المتنوعة في المجتمع إنما هو بسبب طغيان وتعدّي فئة على حقوق ومصالح فئة أخرى، فضلاً عن التعصب الأعمى المقيت، والتأويلات الفاسدة للنص الديني. والفئة المضطهدة ـ حتى وإن كانت أقلية أو ضعيفة ـ فإن شعورها بالغبن والظلامة سيمنعها من التفاعل الإيجابي مع بقية الفئات، وقد يدفعها أحيانا إلى التفكير بالثأر والانتقام[2].

ولكي يبقى هذا التنوع ظاهرة كونية تحقق الغاية من وجود الجنس البشري في أشرف صوره وأنصع حالاته، كان لا بد من إيجاد مساحة واسعة تستوعب الجميع بلا استثناء. وأول ما تبدأ هذه المساحة من خلال طرح تساؤلات حول مفهوم الهوية والاختلاف، والذات والآخر. إن إرادة الفهم وإبراز الصور الحقيقية للرؤية القرآنية حول هذه المصطلحات هي التي تدفعنا لتلمس الفهم الصحيح من طرح القرآن نفسه وباللغة العربية الواضحة التي لا تقبل اللبس

(١) إقرأ نص الصحيفة في السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لا.ت.، ١/١٤١ ـ ١٥١.

(٢) علي دحروج، لماذا الحوار، م.س.، ص٩٢.

والغموض ولا التأويلات الفاسدة. وإذا كان من المستحيل اختزال مسألة الهوية والاختلاف، الذات والآخر، فإن من الواقعية أن نقرَ ونعترف بأن الهوية الثقافية لجماعة ما قد تلتقي مع القدرة على دمج الاختلافات التي تشكل غنى وسموّ الإنسان. لكن كم من تجاوزات ارتكبت باسم الحق في الاختلاف؟ وكم من مآس واختلالات أحدثها هوس الهوية أو تأويل ما للهوية؟.

الحقيقة الثانية: التعارف والتفاهم:

إن الشعوب والقبائل التي بني عليها الاجتماع الإنساني كان من أجل المعرفة والتعارف، من أجل تفاهم البشر على مبادئ العدل والسلام، لا من أجل السيطرة وحب الظهور والتعالي. لذلك أكّد القرآن الكريم على مبدأ التقوى ليكون المقياس الرئيس الذي تقاس به حقيقة هذه المعرفة أو التعارف بقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾ [الحجرات: ١٣]. والتقوى من الوقاية وهي الحفظ والصون والحماية، وكأن التقوى بهذا المعنى تشكل حجر الرحى في علاقات الناس بعضهم ببعض، فتكون حامية لوجودهم من الفناء، ولمصالحهم من الاعتداء والمصادرة؛ لأن من يتقي الله تعالى يلتزم أوامره ونواهيه، فينقاد لشرعه وينفذ إرادته، وهذا ما أشارت إليه آيات القرآن الكريم في كثير من السور.

لهذا كان من لوازم التنوع البشري الذي أشرنا إليه في الحقيقة الأولى وجود التعارف والتفاهم ليبقى هذا التنوع على مرّ العصور يؤدي وظيفته الدينية والاجتماعية، إذ من المؤكد أن لكل أمة ثقافتها وحضارتها وأنماط اجتماعها الإنساني وتقاليدها وأعرافها ومصالحها وآمالها وطموحها، كما أن لها مشكلاتها ومعاناتها، وهو ما جعل التنوع البشري مبنياً على مجموعة من الانتماءات الدينية والقومية والعائلية والمهنية وغيرها، ولكل انتماء منها إلتزاماته التي تتوافق طرداً مع طبيعة توجهه داخل تنوعه[1]. وبسبب هذا الحق

(١) أسعد السحمراني، الإسلام والآخر، م.س.، ص١٣ ـ ١٥.

الذي أكدت عليه شرعة الإسلام قرآناً وسنّة، كان الحوار بين هؤلاء المتنوعين وسيلة لإقامة أفضل علاقات مؤسسة على التعارف والتفاهم وتبادل الخبرات والعلوم، مما يجعل الحياة الإنسانية مستقرة.

لكن، قد يتساءل المرء علامَ يتفاهم البشر ويتعارفون؟ لعل الإجابة من القرآن تضيء على مبدأ مهم ألا وهو جمع الإرادة وتوحيد الجهود على كلمة سواء لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤]. فالاتفاق والتفاهم بين البشر على الكلمة السواء التي دعانا اليها الله تعالى. فما هي هذه الكلمة السواء؟.

الكلمة السواء هي عبادة الله وحده وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من النقص والشرك. والكلمة السواء هي قيم الحق والعدل والمساواة والحرية، فلا يجوز أن يتجبّر بعضنا على بعض، أو أن يتمايز بعضنا على الآخرين، لا باللون ولا بالجنس ولا بالثقافة؛ لأن هذه كلها من مظاهر تجلي قدرة الله في خلقه.

والكلمة السواء أيضاً هي المشترك القيمي الإنساني الذي تأصل في عقل ووجدان البشر جميعاً عبر آلاف السنين، وهذا هو مجال التفاهم والتعارف. لذلك يمكن تحقيق التفاهم والاتفاق على كثير من المفاهيم والأمور التي تندرج اليوم تحت مسمى حقوق الإنسان بمعناها الواسع الشامل، كما يمكن وضع أسس عالمية يتفق عليها لصياغة مشروع الإنسان الحضاري، بعيداً عن الاستغلال والعبودية، مشروع بناء الحضارة الإنسانية على ثوابت السلوك الأخلاقي الذي لا يختلف عليه إثنان، وبعيداً عن ثوابت العقيدة والقيم الخاصة لكل أمة أو شعب أو مجتمع[1].

ومن المعلوم، لا بل من المتفق عليه أن أي مجتمع إنساني له خصوصيته

(١) أحمد الجهيني، محمد مصطفى، الإسلام والآخر، م.س.، ص٢١٤ ـ ٢١٦.

الثقافية بحكم تاريخه الاجتماعي والديني الفريد، والذي لا يمكن أن يتكرر، فهي أشبه بالبصمة المتفردة، كما أن أي منطقة حضارية لها خصوصيتها الثقافية المميزة لها؛ كالحضارة الإسلامية مثلاً، وإن كانت هذه الخصوصية الثقافية لا تنفي - في الواقع ـ الجامع المشترك مع باقي المجتمعات والمناطق الحضارية، بحكم أننا ننتمي جميعاً إلى الجنس البشري[1]. بل يمكن القول: إن هذه الخصوصيات على تفرّد كل واحدة منها قد تشكل التكامل المنشود للتعارف والتفاهم الذي أشارت إليه الآية الكريمة.

إن التراث الإنساني هو أمانة في أعناق جميع البشر دون استثناء لأنه تراث مشترك تداخلت فيه كل الإثنيات والقوميات والأديان والشرائع على مرّ العصور، وعلى الجميع احترامه والعمل على صيانته وحمايته، وذلك بوضع قواعد ناظمة للتفاهم والتعارف وتبادل الخبرات والمنافع، على أساس المصالح المشتركة والقيمة الإنسانية الواحدة.

إن الموقف الذي يمليه الإسلام من خلال دعوة القرآن الكريم المتكررة لحماية الإنسان وتكريمه وحفظ وجوده ونوعه وتراثه هو موقف التكميل والتكامل لا الهدم والنبذ، موقف التعاون على أساس البرّ والتقوى والإحسان لما فيه خير وصالح البشرية في إطار القيم الإنسانية المشتركة[2].

إن القرآن الكريم ليس مبتكراً في كل ما جاء به من أحكام، بل كثيراً ما جاء مهذباً لطرق التعامل الذي تقتضيه طبيعة الاجتماع، أو منتقياً لأكمل ما كان موجوداً منها في تحقيق الغرض المقصود منه. فما كان الإسلام إلا ديناً يراد به تدبير مصالح العباد، وتحقيق العدل والأمن والخير والسلام والمساواة، ولم يأت ليهدم كل ما كان عليه الناس ليؤسس على أنقاضه بناءً جديداً لا صلة له بفطرة البشر، وما تقتضيه سنن الاجتماع، وإنما كان ينظر إلى

(١) السيد ياسين، العولمة والطريق الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٤٠ ـ ٤١.

(٢) فريد عبد الخالق، الفقه السياسي الإسلامي، دار الشروق، مصر، ١٩٩٧، ص٢١٧ ـ ٢١٨.

الأشياء من جهة ما فيها من مصالح ومفاسد، فما كان منها صالحاً أبقاه وأقرّه وجعله من شريعته، وما كان منها ضاراً مفسداً للحال أو للاجتماع أو الأسس نهى عنه وحذر منه وحرّمه[1]. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨].

نعم، لقد قامت الحضارة الإسلامية على هدي القرآن وتوجيهاته السلوكية والأخلاقية وقواعده الناظمة على أساس التفاعل الحضاري، فهي بهذه الخاصية ثقافة حوار وتفاهم في المقام الأول، أخذت عن الحضارات السابقة، واقتبست من ثقافات الأمم والشعوب التي احتكت بها، وصهرت حصيلة هذا كله في بوتقة التفاعل الحضاري، فكانت حضارة الإسلام ـ ولا تزال ـ مثالاً نادراً للتفاعل بين الحضارات وحكاية طريق طويل من التعارف والتفاهم لا تنتهي[2].

الحقيقة الثالثة: قبول الآخر والتعددية الثقافية والحضارية:

لعل من أكبر مشكلات التنوع البشري الأكثر تعقيداً مشكلة قبول الآخر والاندماج معه في ثقافة واحدة أو مجتمع متعدد الثقافات والحضارات، ذلك لأن لكل أمة ثقافتها وهويتها وخصوصيتها كما أشرنا من قبل، أما الحضارة فهي منتجات واكتشافات ومبتكرات وعلوم تتبادلها الأمم وتتناقلها. ومن هنا يبدو كبر المشكلة عندما نخلط بين المصطلحين: الثقافة والحضارة وموقع الآخر فيهما. فالثقافة خصوصية تبدأ مع الإنسان الفرد لتشكل هويته بدءاً من تفاعله مع ذاته ومع ما يؤمن به ويلتزمه من القيم الناظمة لمفاهيمه التي تقود

(١) المرجع السابق، ص٢٢٦.

(٢) عبد العزيز بن عثمان التويجري، الحوار من أجل التعايش، دار الشروق، مصر، ط١، ١٩٩٨م، ص٢٢.

سلوكه، ومن ثمّ التفاعل الإجتماعي مع المحيط لتتولد الخصائص والسمات التي تشكل العامل الحاسم في تحديد الهوية[1].

نعم، إن الثقافة أمر ينطلق من ذات الإنسان، ويحمل معنى التقويم والتنقية، رقياً بهذه الذات نحو معاني الخير والحق والعدل والجمال وسائر القيم. والثقافة في جوهرها عملية إطلاق للطاقات باتجاه توليد وعي جماعي وجمعي يشكل الهوية التي تقود وتطبع الحضارة بطابعها، وهي عندنا ـ نحن المسلمين ـ العقيدة والنظرة إلى الكون، ومجمل المبادئ والأسس التي نؤمن بها ونلتزمها ونعمل على تطبيقها، وهي كل ما يميز شخصيتنا الإسلامية من لغة وفكر وفنون وعلوم وتقاليد وأعراف[2].

ولأن الحضارة هي نتاج ثقافة أمة ما من الأمم، فيمكن القول بأن الثقافة هي مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح ـ لا شعورياً ـ العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، فهي على هذا المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته. وبهذا التعريف الشامل للثقافة وعلاقتها بالحضارة، تتحدد فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة، أي مقومات الإنسان ومقومات المجتمع، مع الأخذ في الاعتبار، ضرورة الانسجام بين هذه المقومات جميعاً في كيان واحد[3].

وتأسيساً على ما ذكرناه حول مفاهيم المصطلحات: الآخر، الثقافة، الحضارة، نشير إلى أن من ثوابت عقيدتنا الإسلامية كما أشار القرآن الكريم، الاعتراف بالآخر وقبوله مهما تعددت ثقافته وأنماط حياته؛ لأن هذا القبول مبني على عدة مسلمات، تشكل مجموعة من الأسس الفكرية والنظرية والعقلية، والدينية للمشاركة والاتفاق بين (الأنا المسلم) و(الآخر غير المسلم). ومن هذه المسلمات نذكر:

(١) أسعد الحمراني، الإسلام والآخر، م.س.، ص٧٠.

(٢) أسعد السحمراني، ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢، ص٨٢ ـ ٨٣.

(٣) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٧٤.

١ ـ الاتفاق والمشاركة الطبيعية في وحدة الأصل، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج: ٥]. ويقول: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤)﴾ [الرحمن: ١٤]. ويقول: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩)﴾ [السجدة: ٧ ـ ٩]. فهذه الآيات وغيرها كثير تشير إلى وحدة الخلق في الأصل والمنشأ، وهذا ما يستدعي قبول الآخر طوعاً؛ لأن مجرد الرفض يعني رفض الأصل للطرفين، وهو أمر لا يقرّه عاقل. وإلى ذلك أشار حديث النبي ﷺ: «والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب»(١).

٢ ـ الفروقات والاختلافات الطبيعية بالرغم من أن أبانا واحد وأمنا واحدة (آدم وحواء)، إلا أن أموراً جوهرية تفرق بين بني البشر ذاتاً وشخصيةً وخلقاً، فالاختلاف قائم في الشكل والصورة واللون والجنس والقدرات العقلية والمادية والفكرية؛ كذلك في المشاعر والأحاسيس والعواطف، وغير ذلك مما يبدو من مظاهر الاختلاف بين الناس. وتتجلى مقاصد الشريعة في ذكر هذه الاختلافات والفروق في كونها ترسم إطاراً نفسياً ودينياً لقبول الآخر المختلف، واعتباره أمراً طبيعياً، ليستفاد من هذا الاختلاف في بناء التكامل والتنوع وتوزيع الأدوار. يقول الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨)﴾ [البقرة: ١٤٨].

٣ ـ واستطراداً للاختلافات والفروق الطبيعية، هناك اختلافات فكرية

(١) أبو عيسى الترمذي، سنن الترمذي، كتاب التفسير، ٩/١٥٥. كما رواه الإمام أحمد في المسند، ٢/٢٦١، ٥٣٤.

ودينية وعقدية، فرضها تعدد الرؤى والتصورات، وكل ذلك من سنن الله في خلقه ومشيئته وإرادته. يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢)﴾ [الروم: ٢٢]. ويقول: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾ [البقرة: ٢١٣] ويقول: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)﴾ [المائدة: ٤٨]. فهذه الآيات وغيرها تشير إلى واقع الاختلاف وقبول الآخر المختلف(١).

٤ ـ ولأن الإنسان هو المخلوق الأرفع والأسمى، فقد كرمه الله ﷻ وميّزه بالعقل والإدراك وآتاه الحكمة وجعله خليفة في الأرض، يعمرها ويستفيد من خيراتها ويقيم فيها شرع الله، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. ويقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)﴾ [الإسراء: ٧٠].

٥ ـ وإلى جانب كرامة الإنسان جعل له مطلق الحرية بإرادته واختياره، ليؤمن أو يكفر، دون إكراه أو ضغط أو جبر، ليكون سيد نفسه في اتخاذ ما يراه مناسباً من أفعال وأقوال وقرارات ومواقف، فقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)﴾

(١) علي محي الدين القره داغي، نحن والآخر، دراسة فقهية تأصيلية، الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، لجنة التأليف والترجمة، سلسلة قضايا الأمة، عدد ٣، الدوحة، شوال ١٤٢٥هـ، ص٤٧ ـ ٦٥.

[الكهف: ٢٩]. ويقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ويقول مخاطباً نبيه محمداً ﷺ في دعوته الناس إلى التوحيد: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٢]. ويقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الزمر: ٤١]. ويقول أيضاً: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]. وعلى هذه الحرية الممنوحة للإنسان جعل المسؤولية والجزاء منوطة بأفعاله وإرادته، وهذا ما يولّد في الإنسان الإيمان الصحيح المقبول النابع من العقل اليقظ المستنير، وهذا أيضاً من أعلى تجليات معاني الحرية الحقيقية، فإن الله تعالى ما بنى أمر الإيمان على الجبر والقسر، وإنما بناه على التمكن والاختيار[1].

٦ - ومن أهم مظاهر التعددية الدينية والثقافية والاعتراف بها ما ذكره القرآن الكريم في أروع معنى وأبلغ مقام، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]. وقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦]. وفي معرض الحكم والعمل يقول القرآن الكريم: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧].

٧ - ولعل أبلغ تطبيق للاعتراف بالآخر وقبوله ما فعله النبي ﷺ في

(١) سعيد مراد، الإسلام ولغة الحوار، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٣١. وقارن به: محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٦م، ص١٤٦ - ١٤٧.

المدينة المنورة مع اليهود عندما وضع دستور المدينة لينظم العلاقة ما بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب والمشركين، والتي اعتبرت - بحق - أول نص دستوري دولي يحترم العقود والعهود والمواثيق ويحفظ الحقوق ويحكم بالمساواة والعدل[1]. وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون ومن بعدهم في تعاملهم مع غير المسلمين حتى أصبح لليهود وللنصارى منزلة كبيرة أيام الأمويين ثم العباسيين، وشاركوا في إدارة الدولة بشكل أو بآخر من خلال المناصب التي أسندت إليهم.

الحقيقة الرابعة: العدل والسلام:

يشكل العدل أهم ركيزة في الحياة الإنسانية لما ينطوي عليها من استقامة الأمور وضبط الحركة التي تربط الناس بعضهم ببعض. والعدل أساس الملك والحامي للسلطة التي تدير شؤون البشر وتسهر على معايشهم. فلا عجب إذاً أن يحتل العدل مساحة كبيرة في القرآن الكريم، حيث ذكر في ثمانية وعشرين موضعاً، كما ذكر مرادف العدل وهو القسط في سبعة وعشرين موضعاً، لذلك قرن العدل بمبدأين مهمين هما: التقوى والإحسان، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

إن إقامة العدل في الأرض من شأنه أن يحفظ الحقوق والذمم، ويجعل الناس متساوين في الحق والواجب، حتى تستقيم حياتهم، وهو ما يجمعهم حول حق المواطنة الصحيحة دونما اعتبار لمظاهر الاختلاف في الدين والعرق

(١) لمزيد من التفصيل حول وثيقة المدينة ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، م.س. ١/ ١٤١ - ١٥١. ومحمد حسنين هيكل، حياة محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مكتبة الأسرة، ١٩٩٦م، ص١٩١. وبركات أحمد، محمد واليهود نظرة جديدة، ترجمة محمود علي مراد، الهيئة المصرية العاة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٨٢. وأيضاً: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٧٣م، ١/ ٢٥٣ - ٢٥٥.

والثقافة. فالقرآن الكريم حين أقرّ مبدأ التنوع وقبول الآخر أصّل له بالعدل ليكون سياجاً واقياً يحمي الناس من الفتن ويدفع عنهم الظلم والنقم، وجعل الشورى وسيلة لتحقيق العدل وتنفيذ مقاصد الشريعة[1].

إن ربط الشورى بالعدل من أهم وسائل تدعيم نظام الحكم لأنه يحفظ المقاصد ويحققها من حفظ العقل والنفس والدين والنسل والمال، وهي حقوق كل إنسان ـ أياً كان هذا الإنسان ـ مسلماً أم غير مسلم. فكرامة الإنسان وتحقيق الأمن والاستقرار النفسي والمادي والمعنوي له من آكد لوازم إقامة العدل في الأرض، وهذا ما يميز مفهوم الأمن والسلام الاجتماعي في الإسلام عن غيره من أنظمة الحكم العلمانية. وبهذا المعنى كانت شهادة رسول كسرى في أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر».

ويوضح مالك بن نبي هذه الفكرة بتحليل واستنتاج رائعين بقوله: «إن المفهوم الديموقراطي الإسلامي ـ الشوروي ـ يرى في الإنسان حضور الله، أما المفاهيم الأخرى فترى فيه حضور الإنسانية والمجتمع، وهكذا نجد نموذجاً ديمقراطياً قدسياً من ناحية ونموذجاً علمانياً من ناحية أخرى. وليس الفرق هنا في الألفاظ، بل فيما تعنيه هذه الألفاظ في الواقع، على مستوى مشاعر الكائن الإنساني نحو نفسه ونحو الآخرين. فالإنسان الذي يُحلّ في نفسه شرفاً إلهياً، يحس بهذا الشرف في ثقل نفسه وفي ثقل الآخرين . . . وهكذا تغرس الديمقراطية ـ الشورى أولاً في وعيه مع هذا التقييم الجديد لنفسه وللآخرين، تقييماً يبعث فيه المعنى الرفيع للإنسان . . . إن الديمقراطية الإسلامية تتميز أولاً بتحصين الإنسان ضد الميول اللاديمقراطية، تحصيناً لا تضمنه له، بصورة آلية، الحقوق السياسية والضمانات المجتمعية التي تمنحه إياها الديمقراطية العلمانية»[2].

(١) توفيق الشاوي، فقه الشورى والاستشارة، دار الوفاء، المنصورة (مصر)، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص٢٥.

(٢) مالك بن نبي، الديموقراطية في الإسلام، بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر الأول لعلم =

بهذا التوجه أمر القرآن الكريم بالعدل حتى مع من نكره أو يعادينا، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [المائدة: ٨]. وبعيداً عن الميول والشهوات والرغبات والمصالح الشخصية يوجه القرآن بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النساء: ١٣٥]. وتحقيقاً لانتظام معايش الناس في الحكم يقول القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾ [النساء: ٥٨]. كما جعل إقامة الصلح بين الناس وبين الفئات المتنازعة مع بعضها البعض مرتبطاً بالعدل بقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾ [الحجرات: ٩]. وبهذه التوجهات يعطي القرآن الكريم الحق للآخر بالدفاع عن نفسه وعن رأيه وعن حقوقه[1].

وإذا كنا قد أشرنا إلى مقاصد الشريعة الخمس الكبرى على مستوى الفرد وهي: حفظ النفس والدين والعقل والنسل والمال، فإن هناك مقاصد عامة أكبر يؤسس لها العدل وهي: حفظ الدولة وشيوع الأمن والاستقرار وانتظام الجماعة وتحقيق الأمن الغذائي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي، وذلك من خلال نظام تشريعي عادل يتناول حياة البشر في التديّن والعبادة والثقافة والاقتصاد، وكل ما من شأنه أن يجعل الإنسان سعيداً في وطن سعيد وضمن جماعات متآلفة. ولعل التاريخ يشهد على ذلك، ولولا الإطالة لذكرنا محطات مهمة في

= السياسة تحت عنوان: الديمقراطية في العالم العربي، منشورات الجمعية اللبنانية للعلوم السياسية، بيروت، ١٩٥٩م، ٣/ ٢٨٠ ـ ٢٨٢.

(١) عبد الله علي العليان، حوار الحضارات في القرن الحادي والعشرين ـ رؤية إسلامية للحوار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٤م، ص٨٠ وما بعدها.

مسيرة العدل السياسي والاقتصادي والديني والثقافي والاجتماعي الذي نعِم به الناس خلال عصور الخلافة الإسلامية، سواء أيام النبي ﷺ في المدينة المنورة، أم أيام الخلفاء الراشدين، أم أيام الخلافة الأموية سواء في المشرق أم في المغرب في الأندلس وغيرها. ويكفي شهادة على ذلك ما ذكره المؤرخ الإنكليزي الشهير أرنولد توينبي واصفاً عدالة الإسلام في قوله: «ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب»(١). فلنقرأ التاريخ بعين باصرة وقلب يقظ ونفس مطمئنة وعقل واع، عندها ندرك عظمة ما أشار إليه القرآن الكريم وأقرّه من نظم وتشريعات، بعيداً عن الهوى والتعصب، وبعيداً أيضاً عن المصادرة والمواقف القبلية.

وما أجمل ما قاله إبن قيم الجوزية رحمه الله: «إن أمارات العدل إذا ظهرت بأية طريقة، كان ذلك شرع الله ودينه»(٢).

الحقيقة الخامسة: الحوار وأدب الخلاف:

اقتضت حكمة الله تعالى أن تختلف آراء الناس في صغير الأمور وكبيرها، سواء في أمور الدنيا أم في أمور الدين، وسبب ذلك أنهم خلقوا مختلفين في الفهم والإدراك والعلم، كما خلقوا مختلفين في الأمزجة والميول والرغبات، وفي الضعف والقوة والصبر على العلم والعمل، وفي هذا يقول المولى سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩].

نعم لقد أصّل القرآن الكريم للحوار وأعطاه مساحة كبيرة في سوره وآياته، ولا عجب في ذلك؛ لأنه في البدء كان الحوار، وفي الحوار كانت الكلمة التي أوجدت هذا الإنسان بما استودعه الله من أمانة التكليف،

---

(١) لمزيد من التفصيل، ينظر: يوسف الحمادي، الإسلام وروح التسامح والرفق، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٩٥، ص١٥٣. وفهم هويدي، الإسلام والديمقراطية، مركز الأهرام للترجكة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٣م، ص٤٠ وما بعدها.

(٢) أحمد محمد الطيب، الإسلام والنهضة، مجلة الهلال، القاهرة، عدد أيلول، ٢٠٠٣م، ص٣٢.

فاستخلفه على الأرض ليكون أميناً عليها، قيماً على موجوداتها، خاضعاً لنواميس الكون والطبيعة. إنه استجابة طبيعية لفعل الكينونة، ولهذا كان الإنسان المكرّم، كما أصبح محور التغيرات الكبرى في التاريخ، يشارك في صنعها، وتعود عليه بالمنافع الجليلة أو المخاطر والمشكلات الكبيرة. وفي التحول إلى مقياسية الكون والنظرة العلمية للإنسان إلى نفسه تنتفي أية قدسية له خارج مبدأ المساواة التامة مع أي إنسان، بل وأي شيء من حوله، من حيث الأصل والمنشأ، قبل أن يتم أي تفاضل وخصوصية في العمل والإنتاج والموازين البشرية. وغالباً ما ينزع الإنسان - قبل أن يوجه ميوله ورغباته - إلى أن يضع الكون والآخرين في خدمته، وأن يغلب إنتماءه القومي القريب على انتمائه الإنساني إلى البشرية. ومن هنا تتحكم فيه نوازع الخصومة والاستعلاء، وتتقوى حتى تصبح جرثومة شر ومبدأً للحروب، وتجعله ينحاز إلى الظلم والعدوانية، فيرفض بالتالي الحوار والآخر والتعددية.

يقول أرنولد توينبي: «إن ولائي الأسمى هو للبشر، وليس لدولتي المحلية، وليس للمؤسسة التي تسيطر على هذه الدولة»(١).

ولهذا كان الحوار قيمة إنسانية وحضارية، ومن الضروري أن يمارسه كل من يؤمن به - فرداً ومجتمعاً - لتحقيق الإيجابيات المتوخاة من الحوار والاستفادة منها في بناء حياة إنسانية راقية وكريمة. وهذا لا يتحقق إلا عندما تربي المجتمعات أبناءها على الحوار واحترام الرأي والرأي الآخر وقبوله عند ظهور علامات الحق بين المتحاورين(٢).

وإذا استقرينا الكثير من آيات القرآن الكريم والصور المتعددة للحوار لخرجنا بالكثير من المعاني، فهي في أصلها تأسيس للحوار والاختلاف بمضامينه العديدة ووفق القضايا المطروحة. وقد وجّه القرآن طريقة الحوار

---

(١) أرنولد توينبي، التحديات الكبرى في الحياة والدين والدولة، ترجمة محمود الهاشمي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٩م، ص٥.

(٢) عبد الله علي العليان، الحوار وثمراته الإيجابية في الرؤية الإيجابية، مقال منشور بمجلة التسامح الإماراتية، عدد ٦٤، ربيع ٢٠٠٤م، ص٦٨.

بمنهجية واضحة وأسلوب متميّز فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥]. كما أرسى القرآن معالم نظرية متكاملة للحوار تقوم على مجموعة من القواعد الناظمة لأدب الخلاف وكيفية التعامل عند ظهور هذا الخلاف، بعيداً عن الشحن العاطفي والغرائزي، بل جعل العقل رائداً وحاكماً ومسيّراً لدفة الأمور. وهذا ما ظهر جلياً من خلال التطبيق العملي للعلماء المسلمين أثناء محاوراتهم تأسياً بسنة النبي ﷺ، وتنفيذاً لإرادة الله وحكمه. وفي هذا السياق نورد بعض النصوص التي تضيء الوجه الحقيقي للحوار كما أرسى معالمه القرآن الكريم.

قيل للإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله: «كيف تخالط أهل البدع وتقصدهم وقد أمرت بهجرهم؟ فقال: هو أولو رياسة، منهم الوالي والقاضي، ولرياستهم لا يستنزلون إليّ. فإذا كانوا هم لا ينزلون إليّ ولا أسير أنا إليهم فكيف يظهر الحق، ويعلمون أن للأهل السنه ناصراً»[١]. ولذلك ورد في الأثر أن النبي ﷺ قال: «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات»[٢].

ومن هنا كانت الحكمة التي دعا إليها القرآن أساساً في الحوار، وفي هذا يقول شيخ الإسلام إبن تيمية رحمه الله: «فالحكمة هي معرفة الحق، والعمل به، فالقلوب التي لها فهم وقصد تدعى بالحكمة، فيبين لها الحق علماً وعملاً، فتبلغه وتعمل به. وآخرون يعترفون بالحق، لكن لهم أهواء تصدهم عن اتباعه، فهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة المشتملة على الترغيب في الحق والترهيب من الباطل»[٣].

(١) ابن عساكر، تبيين كذب المفتري فيما نسب للإمام الأشعري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤، ص١١٠.
(٢) الإمام الغزالي، تخريج أحاديث علوم الدين، ٦/ ١٤٣٨، حديث رقم ٣٨٥٨.
(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، رئاسة إدارة البحوث العلمية للإفتاء، الرياض، ١٤٢١هـ، ١٩/ ١٦٤.

والمعروف أن ما يميّز ثقافة ما عن غيرها هو قدرة أصحابها في حواراتهم وتبادل وجهات نظرهم وآرائهم، بعيداً عن التنطع والسفسطة والجدل العقيم. إن من لا يؤمن بالحرية والديمقراطية والرأي الآخر فليس له الحق أن يحاور الآخرين، وعلى المحاور أن يتدارس منطق الجدل من قيم الدين وفضائله ومن آداب الفلاسفة وطرق الحكماء، لا من أساليب السفهاء وجدال الجهلاء[١].

وبهذا التوجيه القرآني النبيل، كان العلماء المسلمون يتحاورون ويحاورون الآخر، بل كانوا يستخدمون منهج النقد الذاتي لتقويم ما يرون أنه غير صحيح، وذلك لأن مرجعيتهم التي يحتكمون إليها هي القرآن والسنة، عملاً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩]. فهذا هو الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول لعمرو بن مهاجر: «يا عمرو: إذا رأيتني قد مِلت عن الحق فضع يديك في تلابيبي، ثم هزني، ثم قل لي: ماذا تصنع يا عمر؟»[٢] والحسن البصري رحمه الله يقول: «قد كان من كان قبلكم من السلف الصالح يلقى الرجل الرجل، فيقول: يا أخي، ما كل ذنوبي أُبصر، ولا كل عيوبي أعرف، فإذا رأيت خيراً فمرني، وإذا رأيت شراً فانهني»[٣]. ورحم الله الإمام الشافعي حين وصفه أحد محاوريه وهو يونس الصدفي بقوله: «ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة ثم افترقنا. ولقيني فأخذني ثم قال: با أبا موسى: الا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة»[٤]. والشافعي نفسه يقول: «ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطيء؛ لأن الأصل في الحوار هو إيضاح الحق

(١) سيار الجمل، العولمة والمستقبل استراتيجية تفكير، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٠م، ص٤١٨.
(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الفكر للطباعة والنشر، ومكتبة الخانجي، القاهرة، لا.ت.، ٥/ ٩٨.
(٣) الإمام الجويني، الحسن البصري، ص٣٤.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ٩/ ٣٤٨.

وتثبيته دون مغالبة الخصم»[١]. وما أجمل ما قاله الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ عن المحاور: «أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة، يكون شاكراً متى وجدها، ولا يفرق بين أن يظهر على يديه أو يد غيره، فيرى رفيقه معيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرّفه الخطأ وأظهر له الحق»[٢].

ومن آداب الحوار التي أرساها القرآن وجعلها قاعدة عامة ملزمة قول الحق تبارك وتعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [آل عمران: ٦٦]. فليس للتعصب وفرض الرأي على الآخر مجال في الحوار. ولذلك كان حاتم الأصم يقول: «ثلاث أظهر بها على خصمي: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ خصمي، وأحفظ نفسي أن لا أتجهّل عليه. فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: سبحان الله ما كان أعقله من رجل»[٣].

نعم، لقد جعل القرآن الكريم من العقل قيمة كبيرة، ليس لأنه محل ومناط التكليف الشرعي فحسب، بل لأنه بالعقل يستطيع الإنسان أن يحاور ويقول ويفعل ما يشاء، وبهذا تميّز عن غيره من المخلوقات، بالوعي والعقل والقدرة على التعلم، وأيضاً القدرة على التواصل مع غيره عن طريق اللغة[٤].

وحتى يستقيم الحوار منهجاً وأسلوباً وغاية، وحتى ينجح المتحاورون يجب أن يعرفوا أن الاختلاف من سنن الإجتماع البشري، بل هو قيمة إنسانية عالية لأنه يثري ويغني التجربة الإنسانية بالآراء والتوجهات، وهذا هو معنى التعددية التي ذكرها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ

---

(١) الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠هـ/م١٩٨٠م، ٢/ ٢٦ - ٣٠.

(٢) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ١/ ٤٣.

(٣) الإمام أحمد بن حنبل، المسند، ٤/ ٢٦٤. وأخرجه النسائي في السنن، كتاب السهو، ٣/ ٥٤. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ١/ ٤٤١.

(٤) حامد عمار، قيم تربوية في الميزان، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م، ص٢٢.

أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨]. لذلك كان الحوار ضرورة بشرية، يؤسس للتعارف والتفاهم، ويضبط الاختلاف مع مشروعية وجود الخلاف، للوصول بالمشترك الإنساني العام بين الأطراف المختلفة - أفراداً وجماعات - إلى تفعيل قيم التعارف والتعاون والانفتاح بين الناس، وفهم وجهات النظر المتعددة[١].

إن حلقة الوصل بين الذات والآخر تكمن في المفتاح الحضاري أو الأداة المنهجية التي هي الحوار. وفي القرآن الكريم صور ناصعة ورائعة لمشاهد الحوار، تمثل رؤية عالمية حضارية، ينشدها الإنسان ويسعى وراءها؛ لأنها تظهر مفهوم الحوار وقيمه، ومناهجه، وشروطه، وأخلاقياته، وآدابه، وأهدافه، ووسائله، بروح علمية وعقلية منفتحة لا نظير لها[٢].

من هنا كان الحوار ضرورة إنسانية بل حاجة بشرية ملازمة لوجود الإنسان في مسيرته الحياتية، شاء أم أبى، لا انفكاك عنها ولا معاندة فيها. وهذا الحوار يستلزم إيجاد أرضية جامعة مشتركة، الكل فيها متساوون مهما اختلفت قدراتهم وقواهم.

إن الاختلاف مع الآخر لا يعني كراهيته له، أو احتكار عقله، أو ازدراء رأيه وتسفيهه. ولغة المحبة هي التي يجب أن تسود حتى لو بقي المتحاورون مختلفين الدهر كله في آرائهم وتوجهاتهم. وهذا الاختلاف لا يبيح العِرض

---

(١) آمال محمد حسن عتيبة، الحوار مع الآخر في الفكر الإسلامي: دراسة تحليلية من منظور تربوي حضاري، رابطة الجامعات الإسلامية، سلسلة الدراسات الحضارية، القاهرة، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ص١٦ - ١٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٨ - ٢٠. وقارن به: عبد الرحمٰن النحلاوي، التربية بالحوار، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٤م، ص٩. و: مفرح بن سليمان القوسي، ضوابط الحوار في الفكر الإسلامي، إصدارات مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، الرياض، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص١٩. وأيضاً: إبراهيم أحمد الوقفي، الحوار لغة القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م، ص٧.

ولا يحل الغيبة ولا يجبر القطيعة. فالناس عند الخلاف ثلاثة أصناف:

١ ـ إن لم تكن معي فلا يعني أنك ضدي، وهذا منطق العقلاء.

٢ ـ إن لم تكن معي فأنت ضدي، وهذا نهج الحمقى والجاهلين.

٣ ـ إن لم تكن معي فأنت ضد الله، وهذا سبيل المتطرفين والمتعصبين.

فالحوار وإبداء الرأي هو للعرض لا للفرض، وللإعلام وليس للإلزام، وللتكامل وليس للتلاكم. نعم.

عندما نحسن كيف نختلف سنحسن كيف نتطوَر. فبعضنا يتقن أدب الخلاف، والبعض الآخر يهوى خلاف الأدب.

إن استدعاء العقل والفكر والقلب في آيات القرآن يتكرر في كثير من المواقف، بحيث يبدو كأنه الدعامة الرئيسة للحوار، وخاصة في المواقف التي تتصل بالاعتقاد الذي يرتكز عليه كافة أنواع السلوك الإنساني. ولا يمكن أن ينشأ حكم صحيح إلا في مناخ نفسي وفكري يهيء للعقول أن تفكر، وللأفكار أن تتفتح، وللآراء أن تناقش، ولصاحب الحجة أن يدلي بحجته. وهذا ما يعمل القرآن على إيجاده وتكوينه في صرح الحوار واللقاء مع الآخر[١].

إن صنع السلام في الأرض كهدف سامٍ يسعى الحوار لتحقيقه بين البشر يستدعي ـ بالضرورة ـ أن ينشأ زواج عرفيٍ بين الثقافات والحضارات، بين الشعوب والأمم، على أساس التعاون الإنساني غير المحدود، وبعيداً عن الاستغلال والطمع واحتكار المعرفة[٢]. فالبشر يسيرون في سفينة وجود واحدة تتأثر أجزاؤها ببقية الأجزاء، ويشكلون جسداً واحداً، كما يشكل «الفيروس» القاتل خطراً على الجميع.

---

(١) يوسف القرضاوي، العقل والعلم في القرآن الكريم، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٢٤٩. وانظر: عامر شاكر الكبيسي، واقعية القرآن الكريم في التحاور مع الآخر، بحث مقدم إلى مؤتمر «الحوار مع الآخر في الفكر الإسلامي»، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م. وكذلك: سعيد إسماعيل علي، الحوار منهجاً وثقافة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٥.

(٢) عبد العزيز التويجري، الحوار من أجل التعايش، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٥.

إن كينونة الإنسان وحدة لا تتجزأ، وتعبَر هذه الكينونة عن نفسها في جميع تجلياتها. فلو استطعنا مثلاً أن نصلح أداء الإنسان على مستوى تجلٍ من تجليات ذاته، لربما انعكس هذا الإصلاح على الكينونة نفسها إستناداً إلى قاعدة الوحدة الذاتية للإنسان. أي إذا استطعنا أن نعدَل من الأداء الإنساني لربما استقام في الوقت نفسه الأداء الإجتماعي، وكذا الأداء على صعيد الإنسانية كافة. فالإنسان وحدة لا تتجزأ، والكون يترابط بوحدة وجودية، تجعل له هيئة تتلاحم لأولي الأبصار في كافة المجتمعات.

وهنا تظهر مشكلة القراءة الفلسفية للكون وللبشرية، وعلاقة الذات بهما، فهل تستوي قراءة الذات من خلال الكون والآخرين مع القراءة الأخرى التي تنطلق في قراءة الكون والآخرين من خلال الذات؟ وهل يمكن للصورة المصغرة أن تلغي حقيقة العالم الخارجي، أو أن تحل مكانه؟[١].

وأخلص من مسألة الحوار إلى نتيجة مؤداها أن أخطر ما يهدد الإنسان أو الجماعة ويعزلها هو الشعور بالاكتفاء الذاتي فكرياً، وعدم الرغبة في قراءة الآخر والتعرف عليه، وهو شعور خطير ومكلف قد يؤدي للتقوقع على الذات، أو للصدام مع الآخر والخروج عليه، ما دام سوء الفهم وسوء الظن هما سيدا الموقف. لذلك كان الحوار محاولة لاكتشاف كل طرف جوانب الغموض في الطرف الآخر، ومعرفة المناطق المثيرة للقلق أو للغضب حتى يمكن تلافيها.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

الخاتمة

أردت من هذه الخاتمة أن تكون وجهة نظر أعبَر فيها عن معنى التدين ووظيفة الدين في الحياة وفي المجتمع، باعتبار أن المتحاورين مؤمنون بالله،

---

(١) سعاد الحكيم وآخرون، نحو فلسفة للسلام العالمي، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، ٢٠٠١م، ص٣٢٣.

كلّ على طريقته، وكلّ بحسب الدين أو الشريعة أو المذهب الذي يدين به. فإذا كان الإيمان هو الجامع المشترك في صفة التدين بين المتحاورين، أمكن وضع إطار عام لحقيقة الآخر المختلف ضمن هذا المفهوم العام المشترك.

فالغريزة الدينية كامنة بصفة عامة في طبيعة النفس البشرية، شأنها شأن كل الغرائز الموجودة في الإنسان وطبعه للحفاظ على بقائه واستمرار نوعه. وهذه الغريزة الدينية قاعدة مشتركة بين البشر، قديماً وحديثاً، طالما أن الإنسان يشدّه نزوع دائم نحو الأعلى المسيطر. إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية. وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسان. وإن هذه الغريزة الدينية لا تختفي، بل لا تضعف ولا تذبل، إلا في فترات الإسراف في الحضارة، وعند عدد قليل جداً من الأفراد.

إن الإحساس بالشعور الديني أصيل في كل نفس، يجده الإنسان غير المتدين، كما يجده أعلى الناس تفكيراً، وأعظمهم حدساً. وستبقى الديانات ما بقيت الإنسانية، وستتطور بتطورها، وستتجاوب دائماً مع درجة الثقافة العقلية التي تبلغها الجماعة.

نعم يستحيل أن تتلاشى فكرة التدين؛ لأنها أرقى ميول النفس وأكرم عواطفها، ناهيك بميل يرفع رأس الإنسان، بل إن هذا الميل سيزداد. ففطرة التدين ستلاحق الإنسان ما دام ذا عقل يعقل به الجمال والقبح، وستزداد فيه هذه الفطرة على نسبة علوّ مداركه ونموّ معارفه، كما أنها ستبقى حجة ناطقة على بطلان المذاهب المادية التي تحصر الفكر الإنساني في المضائق الدنيئة للحياة الأرضية[(١)].

فالتدين ـ ولا سيما في رسالات وشرائع التوحيد ـ عنصر ضروري لتكميل القوة النظرية في الإنسان، فيه وحده يجد العقل ما يشبع نهمه، ومن

---

(١) محمد عبد الله دراز، كتاب الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم، الكويت، ط٢، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص٨٧ ـ ٩٨ (بتصرف).

دونه لا يحقق مطامحه العليا. ثم هو فوق ذلك عنصر ضروري لتكميل قوة الوجدان. فالعواطف النبيلة من الحب والشوق والشكر والتواضع والحياء والأمل وغيرها، إذا لم تجد ضالتها المنشودة في الأشياء ولا في الناس، وإذا جفت ينابيعها في هذا العالم المتبدل المتبدد، وجدت في موضوع الدين والتدين مجالاً لا تدرك غايته ومنهلاً لا ينفد معينه.

إن حاجة الناس إلى التدين تدفعهم دائماً للبحث عن الملجأ الآمن الذي يحقق لهم السكينة والاستقرار والطمأنينة، وينزع من قلوبهم الخوف والهلع، ليملأ نفوسهم رجاءً وأملاً. وهل غير الدين يمكن أن يلبي هذه الحاجة بكل أبعادها ومآلاتها؟.

لقد سوى الإسلام بين طبقات الناس في الحقوق والواجبات، وجعل التقوى والتنافس فيما بينهم، لا على أساس المادة والمال، أو الجاه والنسب، فعمّ العدل وانتشرت الرحمة، وانتصر للمظلوم من الظالم. وهذه شجاعة لا يقدم عليها إلا من كان قلبه عامراً بالإيمان، ونفسه عفيفة، وهمته عالية. وبذلك أرسى القرآن الكريم بين البشر قواعد الأخوة الحقة، الأخوة التي تتعاون على الخير والمحبة والتقوى، رغم اختلاف اللون والجنس واللغة والتاريخ.

والذي نريد أن نثبته في ختام هذا البحث بعد النظر والتأمل، هو أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين أو تدانيها في كفالة احترام القانون، وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه.

والسر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية في أن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع في يده ولا عنقه، ولا يجري في دمه، ولا يسري في عضلاته وأعصابه، وإنما هو معنى إنساني روحاني، إسمه الفكرة والعقيدة. ولقد ضلّ أناس قلبوا هذا الوضع وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية، بل يتأثران بها.

نعم، إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة، تحترم فيها الحقوق، وتؤدى الواجبات على وجهها الأكمل، فإن الذي يؤدي واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المادية، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون.

ومن الخطأ البيّن أن نظن أن في نشر العلوم والثقافات وحدها ضماناً للسلام والرخاء، وعوضاً عن التربية والتهذيب الديني والخلقي، ذلك أن العلم سلاح ذو حدين: يصلح للهدم والتدمير كما يصلح للبناء والتعمير، ولا بد في حسن استخدامه من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض، لا إلى نشر الشر والفساد.

ورحم الله العلامة الشيخ محمد الغزالي الذي قال: «إن كل تدين يجافي العلم، ويخاصم الفكر، ويرفض عقد صلح شريف مع الحياة . . . هو تدين فقد كل صلاحية للبقاء».

